التي يحتم عليه انفاذها وتطبيقها على نفسه بالعمل

والذي يا هذا اذا أصبحت ذات يوم مريضاً فلا تحمل اللوم على قواعد حفظ الصحة وقلة نفعها ولا على ضعف العلم بل ان الذنب في ذلك في احتقارك ومواظبتك

◆

رحلة الى جبل قلمون

يعد جبل قلمون من جبال سورية من اعظمها ارتفاعاً وهواءً وفياً ومع هذا لم يشتهر اشتهار جبل لبنان وحرمون والكليبة والكرمل على قربه من دمشق اعظم بلاد الشام . وكان يقال له في القديم جبل سنير وبعلبك عرفه الجغرافيون والمؤرخون والشعراء . قال ابن خرداذبة في المسالك والممالك وهو مما ألّف منذ نحو الف سنة ان كورة دمشق واقاليمها جبل الغوطة اقليم سنير مدينة بعلبك البقاع اقليم لبنان كورة جبلية كورة طرابلس كورة جبيل بيروت صيدا البثنية كورة حوران كورة الجولان وظاهر البلقا وحوالي الغور وكورة مآب وكورة جبال وكورة الشراة وبصرى وعمان والجابية . فاقليم سنير هو من اقرب الاعمال الى دمشق ولم نظفر له بتحديد احسن من تحديد ياقوت في معجم البلدان . قال ان سنير بفتح اوله وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت جبل بين حمص وبعلبك على الطريق وعلى رأسه قلعة سنير وهو الجبل الذي فيه الثلج يمتد غرباً الى بعلبك ويمتد مشرقاً الى القريتين وسلمية وهو في شرقي حماة وجبال الجليل مقابله من جهة الساحل وبينهما الفضاء الواسع الذي فيه حمص وحماة وبلاد كثيرة . وهذا جبل كورة قصبتها [illegible] من نواحي القريتين ويتصل بلبنان متيامناً حتى يلتحق بجبال الجليل (؟) ويمتد متياسراً الى البرية وسنير الذي ذكرناه بين حمص وبعلبك شعبة منه لا انه المنفرد بهذا الاسم . وقد ذكره عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي فقال من قصيدة

أشيم ركابي في بلاد غريبة من العيس لم يسرح بهن بعير
فقد جعلت حتى اراد حبيبها وادي القطيفين ان يلوح سنير
وكم طلبت ماء الاحص تمد وذلك شأو للرحال كبير

وقال البحتري

وتعمدت ان تظل ركابي بين لبنان طلعاً والسنير

انتهى كلام ياقوت وجاء في ابي الفداء ان الجبل الشرقي المعند شمالي الشام كان يدعى سنيرًا في عهده وقد ورد سنير في التوراة قال الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس سنير (درع او شلالة) اسم من جبل الشيخ (حرمون) (١ اي ٥ : ٢٣ ونشيد حز ٢٧ : ٥) وقال ياقوت في القلمون بفتح اوله وثانيه بوزن قربوس وهو فعلول قال الفراء وهو اسم واحد

بنفسي حاضر بجنوب حوضى وابيات على القلمون جون

ومن القلمون الذي بدمشق بحتري بن عبد الله بن سلمان الطابخي الحكاني من اهل القلمون من قرية الاباعي وقال في القاموس قلمون محركة موضع بدمشق . الطابخ بن القلمون رحبة وحوانيتها مدرة . [illegible] طيب [illegible] الجبل الطيب او نحو مكتبه وحوارين التي قال فيها ياقوت ان [illegible] هي الحصينة جبل سنير وهي كالتل في مكان آخر حصن من ناحية حمص قال بعضهم

يا ليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

وقال احمد بن جابر مر خالد بن الوليد في مسيره من العراق الى الشام بتدمر والقريتين ثم اتى حوارين من سنير فاغار على مواشي اهلها فقاتلوه وقد جاءهم مدد من اهل بعلبك ثم اتى مرج راهط وفي كتاب الفتوح لابي حذيفة اسحاق بن بشير وسار خالد بن الوليد من تدمر حتى مر بالقريتين وهي التي تدعى حوارين وهي من تدمر على مرحلتين وبها مات يزيد بن معاوية في سنة ٦٤ قال الراعي

الحق بحوارين في مشمعرة يبيت سحاب من فوقها وتروح

وقال ايضاً والقريتان قرية كبيرة من اعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة واهل اهلها كلهم نصارى وقال ابو حذيفة في فتوح الشام وسار خالد بن الوليد رضي الله عنه من تدمر الى القريتين وهي التي تدعى حوارين وبينها وبين تدمر مرحلتان واياها عنى ابو نواس بقوله

وصرت بشاطي البلد من [illegible] وحوارين دونها والعوير
وسوى والقريتان وعين [illegible] تمر حرب يكلي فيه البعير
فاستقت من [illegible] ليس فيه من ولا تكدير

وقد سألنا العارفين فأكدوا لنا ان حوارين بعيدة عن القريتين بنحو ثلاث ساعات وآثارها بادية الى الآن ومما نظن انها كانت قصبة جبل سنير فيما مضى الا في امورها الادارية كما ترى اليوم قسماً من جبل قلمون تابع لقضاء دوما الشام والقسم الآخر وهو الاعظم تابع لقضاء النبك وقسم منه تابع لحمص ويقول الخبيرون من اهل هذا الجبل اليوم ان جبل قلمون يمتد من الفريج الى الهريج وهو تحديد معقول جداً لانك ترى في الفريج وهي مزرعة في رأس جبل قرب عين الصاحب بين معربا وحلبون سلسلة جبال حديدة تكاد تكون متصلة بعضها ببعض وفي الفريج وهي على نحو ثلاث ساعات من قارة القاصد الى حمص ويمتد شمالاً الى الجرود على بضع ساعات من بعلبك وجنوباً الى الدومة وتجتاز المسافة من الجنوب الى الشمال لراكب المطايا في يوم كما يقطع طول الجبل من غربه الى شرقه في يومين . ويوصل بعضهم طول الجبل الى وادي القرن قرب البقاع . ويدل على ان آخر حدود الجبل هو في الفريج من ناحية حمص ما قاله الاصطخري من ان الطريق من حمص الى دمشق هو عشر فراسخ من حمص الى جوسية ثم الى قارة عشرون ميلاً ثم الى النبك اثنا عشر ميلاً ثم الى القطيفة عشرون ميلاً ثم الى دمشق اربعة وعشرون ميلاً . وجوسية كما لا يخفى قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق بين جبل لبنان وجبل سنير فيها عيون تسقي اكثر ضياعها سيحاً وهي كورة من كور حمص .

ونقل الدكتور فنديك في المرآة الوضية نقلاً عن ابي الفداء انه قال ان سنير هو جبل الشيخ او قسم منه ولذلك رأينا ذلك في جغرافيته بذكر بعض امهات قرى جبل قلمون او سنير بحسب المقاطعات التي كان معروفاً بها عند الحكومة على عهد تأليفه ولم يذكر انها من اعمال جبل . . . فالى الشمال من دمشق مقاطعة يقال لها ناحية عسال نسبة الى مكان يقال له عسال الورد لكثرة الورد الذي فيه ومن اشهر قراها صيدنايا وفيها دير لراهبات طائفة الروم والى الشمال الشرقي مقاطعة معلولا نسبة الى قرية فيها حصينة مبنية على قمة هناك لا يسلك اليها الا من مضيق مستوعر وفيها دير عظيم لطائفة الروم وقد حدث في سنة ١٨٥٠ للمسيح ان امراء بني الحرفوش اصحاب بعلبك تحصنوا بها بعد وقعة جرت لهم مع اجناد دمشق فأتى عليهم عسكر الدولة الى معلولا بدليل من بعض اهلها فقتلوا بعضهم واسروا بعضاً ونهبوا القرية والدير وحول معلولا عدة من القرى كعين التينة وجبعدين وغيرها ولم يزل اهل تلك النواحي يتكلمون اللغة السريانية لكنها محرفة كثيراً عن اصلها كعربية العامة في هذه الايام والى الشمال الشرقي

من معلولا مقابلة يبرود نسبة الى قرية كبيرة فيها بعض آثار قديمة وفي جوارها رأس العين ومعرة باش كردي وفليطا وحل والقسطل والى الشمال الشرقي من القسطل النبك وما بين النبك والغوطة يسمى الارض التحتية وفي هذه الارض يمر الطريق من دمشق الى بغداد وفي جوار النبك قارة وهما اعدل مكانين في تلك الديار حتى يضرب المثل بجودة هوائهما ومائهما وقد لهجت بهما الشعراء كثيراً قال بعضهم

اذا لاحت الرمضاء ذكراك بردت   حشاي كأني بين قارة والنبك

والى الشمال الشرقي من النبك دير عطية وقال الحافظ ابو القاسم معلولا اقليم من نواحي دمشق له قرى وقال ياقوت في منين قرية في جبل سنير من اعمال الشام وقيل من اعمال دمشق منها الشيخ الصالح ابو بكر محمد بن رزق الله بن عبيد الله قال ياقوت وكان من ثقات المسلمين ولم يكن بالشام من يكنى بابي بكر غيره خوفاً من المصريين (الشيعة) توفي سنة ٤٢٦

فاهم بلاد القلمون يبرود وكانت هي والنبك من امهات مدن مملكة صوبة او صوبا القديمة وهذه المملكة كانت في شمالي سورية تمتد من شمالي لبنان الشرقي نحو حمص وحماه وحلب وهي قاعدة جبل القلمون ينيف سكانها عن عشرة آلاف ثلثهم مسيحيون والثلثان مسلمون وتكاد تكون اشبه بالمدن منها بالقرى لتوفر مرافق الحياة فيها وكثرة سكانها وصلاتهم التجارية مع دمشق وبيروت وحمص وحماة وبعلبك ولوفرة المهاجرين منها الى اميركا ويبلغ عددهم نحو الف رجل ومنهم الذين اغتنوا وفي يبرود عدة مدارس للمسيحيين على اختلاف مذاهبهم منها مدرسة للروم الكاثوليك انشأها احد احبارهم منذ زهاء عشر سنين فوهبها ثلثمائة ليرة من ماله وفرض على ابناء طائفته ان يشتغلوا فيها بايديهم ايام الآحاد والاعياد فجاءت مدرسة كلفت زهاء الف وخمسمائة ليرة وقد اشتغل بعضهم بنقل التراب وآخر بجلب الحجر وغيره بالبناء . وبامثال هذه المدارس اصبح المسيحيون ارقى من جيرانهم المسلمين لان الاولين يتعلمون والآخرين يجهلون وكانت الحكومة البائدة تريدهم خبالاً الى خبالهم وليس لهم من اهل الرأي والعلم من يشفق عليهم ويسعى الى ترقيتهم ترقية حقيقية كما هو حال مواطنيهم

اقول هذا ولا نكران ان ارتقاء المسيحيين عن المسلمين ماثل على اشد صوره في هذا الجبل وكيف لا يكون كذلك والارساليات الدينية من الروس والانكليز والفرنسيس لم تكد تترك قرية الا وافتتحت فيها مدرسة لتثقيف عقول ابنائها على مناحيها الى ان جميع

دينية اقامت لها دمشق في دير عطية البلد الثاني في الجبل بكثرة سكانه واستبحار عمرانه

ودير عطية هذه هي والنبك (مركز حكومة القضاء) في واد كان يعرف قديماً بذات القصائر او وادي القصائر قال ياقوت والنبك قرية مليحة بذات القصائر بين حمص ودمشق فيها عين باردة في الصيف طيبة عذبة يقولون مخرجها من يبرود وقال الزاجر

انى لك اليوم واني منك ... ركب اناخوا موهناً بالنبك

واطلعت في دير عطية على حجة وقف نقلت حوالى الالف عن حجة كتبت سنة ثمان وسبعمائة للهجرة محفوظة عند كفيف من اهلها اسمه الشيخ عبد القادر الناظر جاء فيها ان «الست الجليلة صالحة خاتون ابنة الامير الكبير صلاح الدين بن [illegible] ابن الامير الكبير شمس الدين الاكري الآمدي وقفت وحبست وابدت في صحة منها وسلامة وجواز امرها جميع الضياع الخمس المتلاصقات المعروفات بوادي القصائر من عمل دمشق المحروسة وتعرف احداهن بالبريضا والثانية بالربعة والثالثة بالبيدا والرابعة بدير عطية والخامسة بالحراء» وقد صدقت على هذه الوقفية محكمة [illegible] ولا يعرف اليوم من هذه القرى غير دير عطية والحميرة وفي دير عطية مدرسة للعلوم الدينية والعربية انشأها الشيخ عبد القادر القصاب الازهري المدرس تخرجت منها فوائد جليلة وفيها الآن نحو ٥٠ طالباً وقد تعلم بعض الطلبة [illegible] عن كفاءة [illegible] اخذوا انفسهم بتعلمه

ومن اهم قرى قلمون الرحيبة وجيرود وكلّ منهما قريبة من [illegible] مملحة دائرة محيطها ثلاثة عشر ميلاً وهي في سهل منبسط ينحدر اليه ماء المطر من الاطلال ويجتمع على علو يختلف بين ٣٠ و ١٠٠ سنتمتر وفي اوائل [illegible] يتحول ذلك الماء ملحاً ابيض نقياً مراً وهذان البلدان من قلمون الشرقي وفيه ايضاً الضمير وفيها عين كبريتية ينفع الاستحمام بها المصابين بالامراض الجلدية وارض هذه القرية او البلد حارة تبلغ غلاتها قبل سائر قرى الجبل حتى ان الشعير يحصد فيها في نيسان ويحمل الى عسال في حدود الجبل الباردة ويزرع في الحال فيحصد في تموز وهذا من اعجب ما يكون في اقليم واحد والمسافة بين الضمير وجرود نحو عشر ساعات

قال في المعجم ضمير بالتصغير موضع قرب دمشق قيل هو قرية وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة قال عبيد الله بن قيس الرقيات

اقفرت منهم الفراديس فالغو ... طة ذات القرى وذات الظلال
فضمير فالماطرون فحورا ... ن قفار بسابس الاطلال

اعرب الماطرون على ان نونه للجمع وهذه المواضع كلها بدمشق . وقال المتنبي

اني تركت عميراً عن ميامنه   ليحدثن لمن ودعتهم ندم

وقال الفرزدق يرثي عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي وكان قد مات بضمير من دمشق

يا معشر الناس لا تبكوا على احد   بعد الذي بضمير وافق القدرا
ما مات مثل ابي حفص لمعمعة   ولا لطالب معروف اذا افتقرا
منهن ايام صدق قد بليت لها   ايام فارس فالايام من هجرا

يعني قتاله لابي فديك الحروري

ومن اعم قرى قلمون الشرقي القطيفة وهي مركز مدير ناحية تابعة للنبك جاء في المعجم انها قرية دون ثنية العقاب للقاصد الى دمشق في طرف البرية من ناحية حمص وثنية العقاب هي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد دمشق الى حمص قال اهل السير ان خالد بن الوليد سار من العراق حتى اتى مرج راهط فاغار على غسان في يوم فصحهم ثم سار الى الثنية التي تعرف بثنية العقاب المطلة على دمشق فوقف فيها ساعة ناشراً رايته وهي راية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تسمى العقاب فسمّيت بها

ومن قرى الجبل البديعة قرية معلولا يتصل اليها من الشمال من صيدنايا في الجبل وهي مدينة منيعة ويؤكد بعض العارفين انها هي مدينة سلفكيا بعينها احدى امهات مملكة سلوقس احد خلفاء الاسكندر الاربعة الذين اقتسموا مملكته بينهم بعد وفاته فانتشبت الحرب عام ٣٠١ ق ٠ م ودارت الدائرة على الملك انتيغونس وابنه ديمتريوس فاقتسم اذ ذاك قواد الاسكندر مملكته الى اربع ممالك الاولى مصر احدها بطليموس سوتير مع بر الغرب وجنوبي بر الشام اي فلسطين والثانية مكدونية وبلاد اليونان احدها كاساندر والثالثة ثراقيا وميسيا وبعض اطراف آسيا الصغرى احدها ليسيماخوس والرابعة بقية الممالك من البحر الاسود الى نهر الاندوس في الهند احدها سلوقس وسميت مملكة سورية ومن اشهر مدنها انطاكية وسلوقية وافامية واللاذقية ٠ ولا يزال الى اليوم يعثر في بادرها على آثار تدل على عمرانها القديم الفخيم ٠ واهلها وهم نحو ثلاثة آلاف يتكلمون بالسريانية المحرفة كما تقدم وفي جوار معلولا بخعا وجبعدين واهلها ايضاً يتكلمون بهذه اللغة كما ان اهل قلدون يتكلمون بالتركية المحرفة قليلاً ويقال ان اصلهم من التركمان نزلوا هذه القرية منذ سنين واختلطوا باهل الجبل ٠ وكان بالقرب من قلدون ثلاث مزارع يتكلم اهلها بالتركية ايضاً وهي دنحا ومريمنة والكنيسة الاولى دثرت ٠ وعلى مقربة من معلولا قرية عين التينة كان اهلها كاثوليك حيرتهم المسيحيون نصارى بطارقة

دانوا كلهم الاسلام منذ زمان قريب وقبلوا الاوضاع الشيعية واوضاع اسلامية حتى انهم يطالبون [illegible] بيت الخوري بيت الشوري بالاهال وفي هذه القرية شجر الفستق الحلبي ولا يزال يغرس لان اهلها لا يجدون عوضه وهذه القرية هي الوحيدة في قرى ولاية سورية التي تخرج الفستق وهو من احسن الانواع لا يكاد يضاهيه بجودته فستق بروم قلعة من اعمال حلب

* * *

طفت هذا الشهر أمهات قرى قلمون وكنت زرتها منذ عشر سنين فرأيت عليها مسحة من الارتقاء أتاها في الغالب من المال الذي جاء به من اميركا المهاجرون من القلمونيين وفي قرية معرة صيدنايا وصيدنايا ويبرود ودير عطية مثلاً بيوت جميلة أقيمت بالحجر المنحوت على شكل بيوت لبنان الحديثة ومن البيوت ما كلفت الفي ليرة وربما اكثر الا ان معالم الجبل ظلت على حالها وربما نقص بعض الشيء بطبيعة الزمن . وقد اشترك في الهجرة الى اميركا سكان الجبل من المسلمين والمسيحيين الا ان عدد هؤلاء اكثر والناجحين منهم اوفر ويقدرون عدد المهاجرين من الجبل بنحو اربعة آلاف رجل نجح منهم في الاكثر من اعتادوا شظف العيش مثل مهاجري دير عطية والنبك وصيدنايا والمعرة ومعلولا وقارة اما المهاجرون من الذين اعتادوا الترف قليلاً فاخفق سعيهم وانقطعوا او كادوا لقلة ذات ايديهم . ولا يعرف على وجه الصحة ما يبعث به المهاجرون القلمونيون من النقود كل سنة اذ ليس ثمة احصاء صادق وغاية ما يقال وما يستنتج مما يقرب من الحقيقة ان معدل عدد الرسائل التي ترد من المهاجرين كل سنة الى اهلهم في الجبل يبلغ الثلاثة آلاف رسالة . هذا في القرى التابعة لقضاء النبك وهي مركز الجبل ومزدحم الاقدام وفيه من القرى ٢٨ قرية و٢٢ مزرعة . وباقي قرى الجبل وهي ١٣ قرية تابعة لقضاء دوما فاذا فرضنا انه يأتي من المهاجرين في السنة الف رسالة على اقل تعديل ولا يكتب لاهله الا الناجحون منهم في العادة ويرسل كل واحد الف ليرة يكون معدل ما يصل من النقود الى قلمون الالوف من الف ليرة . وهذا مبلغ لا يستخف به بالنسبة لفقر الجبل ، ولو كان هذا المال يتبع في العناية بالزراعة وتربية المواشي وغرس الاشجار والغابات لكان الجبل من اغنى جبال العالم .

ويبلغ عدد نفوس الجبل باحصاء الحكومة ٥٠١٢٧ نسمة بين ذكور واناث منهم ٤٧٠٥٠ في القرى التابعة لقضاء النبك والباقي ٣٠٧٧ في القرى التابعة لدوما وعدد الاسلام في قضاء النبك ٦٦٠٠ وعدد الروم الارثوذكس ١٥١٠ وعدد الروم الكاثوليك ٢٩٢٠

وعدد السريان الكاثوليك ٩٦ وعدد البروتستانت ٨٠ وبلغ عدد المسيحيين في الثلاث عشرة قرية التابعة للقضاء ودومة ٢٥٠٠ نسمة

وبلغت اعشار القرى التابعة للنبك هذه السنة ٢٣١٣٤٤٠ قرشاً واعشار القرى التابعة لقضاء دومة ٢٣٩٠٣٥٠ قرشاً واهم قرى الاولى الغنية يبرود والرحيبة وجيرود والضمير وقارة والنبك ودير عطية ومعلولا واهم قرى القضاء الثاني التل ومنين وحلبون وتلفيتا وصيدنايا ومعرة صيدنايا وباقيها مزارع او اشبهها.

وتنقسم قلمون بحسب موقعه الطبيعي الى قسمين فوقي وتحتي فمن قرى القسم الفوقاني رنكوس وحوش عرب وهي تعلو عن سطح البحر ١٧٧٠ متراً وعسال والنبل والجبة ومعرة باش وطلفيتا والسحل وقارة وعرسال ودير عطية والنبك وبخعا ورأس العين ويبرود وجبعدين ومن قرى التحتية الوادي وعكوبر وبدا وحفير الفوقا وحفير التحتا وجبة ومعلولا والقسطل وعين التينة والقطيفة والمعظمية وجيرود والرحيبة والضمير ومعرونة وتلفيتا وصيدنايا ومعرة صيدنايا والتل ومنين وحرنة ومطارة والدريج ومعربا وحلبون وهي التي تخزن الثلج في الربيع في حردها وتأتي به كل عام الى دمشق وتشاركها في بيع الثلج قريتا اوارة او قفرة وقرية منين

وتعد زراعة قلمون من الدرجة الثالثة ولو توطدت دعائم الامن فيه لاستطاع اهل القرى القريبة من البرية الشرقية ان يزرعوا تلك السهول الفسيحة ويستفيدوا من المراعي البعيدة عن القرى ساعات. واكد لي العارفون بان الامن اذا استتب في قضاء وأمن القضاء من غارة اشقياء العرب والدروز على المواشي والزروع تكثر مواشيه كثرة زائدة ويغتني الفلاح والحكومة فقد نهب العرب والدروز مدة حكم صبحي باشا نحو مئة وخمسين الف رأس من الغنم والمعز لو سلمت لاربابها لكانت الآن على اقل تعديل مائتي الف رأس ومعدل ربح الرأس مئة قرش هذا عدا ما هو موجود اليوم من مواشي الجبل

وليس مثل حرود قلمون في الصيف اعني المواشي ومثل سروحها الشرقية في الشتاء والبان قطعانها من اهم ما ذاق الذائقون. ولو ثبتت امنية الفلاح القلموني باستقرار الامن في شعابه ومضاربه في الفصول الاربعة لربح الفلاح كل سنة الدرس قرشاً من ماشيته فقط ومن كانت عنده المئة يجني المئتين ومن عنده الالف جاءه الالفان. ويوقن الجميع بانه لا سبيل الى تقرير الامن في قلمون الا بوضع اربع مخافر الاول في الضمير والثانية في الناصرية والثالثة في الحفرة والرابعة في القريتين ان تجعل في كل واحدة منها ... في

بعض ما فلاح لايواء الجند — خمسة وعشرون جنديا نظاميا فارساً (مفرزة) وبذلك يرهب اشقياء عرب البادية بأس الحكومة ويكفون عن السطو على ضعاف الاهلين كما اعتادوا الغزوة .

ولا تجد في قلمون غابات كاكثر جبال العالم بل هو جبل اجرد اقرع ولو صحت عزيمة سكانه لاكثروا من زرع التين والكرم والجوز واللوز في الاراضي القريبة من القرى ومن السفحين والوطاء والنجاد والشعاب . والظاهر ان فأس الحطاب واسنان الماشية عفت زمنا طويلا الى ان جردت الجبل من اشجاره ونباته فلا تجد الشجر الا قرب القرى والا في البساتين ولا تجد اثراً لزرع ولا شجر

قال احد الاجانب ممن زاروا هذا الجبل مؤخراً كنت اتمنى في حياتي ان اشاهد جبلاً اجرد من الكلاء والشجر فها قد قرت عيني في قلمون بمشاهدة ما كنت اريده من الجبال الجرداء اما في سويسرة فلتبق ذكرى منه بروابيه الخضراء ذات غابات غناء

وليست مياه قلمون شحيحة بل هي معتدلة غزيرة كأحسن البلاد الجبلية ولكن مياهها تضيع في الاراضي ولا تتعهد بالعناية واذا تولى الاهلون ومساعدة الحكومة قليلاً في تدبير بعضها تزيد كمياتها بحفر العيون والاقنية والانتفاع بالمياه والسيول حتى لا تضيع منها نقطة بلا فائدة . ومن هذه العيون ما يشفي الاوصاب ويقوي الاجسام ويساعد على هضم الطعام ولا سيما ما قرب من حدود الجبل حيث يكثر نزول الثلوج وتبقى كل سنة مدة الشهور متراكمة في النجاد والوهاد واشهر مياه الجبل ماء في معرونة وهي جمع من الماء شتاء ولكن ماءها الابيض قال الانكليزي يده اذا اذا غطت في الماء لا تثقل على الطاعم

وقد بحثنا في بعض قرى الجبل عن آثار حجرية مكتوبة او كتب مخطوطة تلقي ضياء على مواد تاريخية ينتفع بها فخاب سعينا اذ ان اهل معظم اديار الجبل لا يعرف اهلها من التاريخ الا تقاليد يتناقلونها بالافواه وهي لا تساوي شيئاً اذا وضعت على محك النقد واذا كانت الاديار خالية من مثل هذه الآثار بل تكون دار المعاهد احلى فدير صيدنايا لراهبات الروم هو بحسب ما شاهدنا من اقدم اديار الجبل ولم يبق فيه تاريخ الدير نفسه وقيل لنا ان اهل الدير حرقوا بالحيلة ما عندهم من كتب سريانية كثيرة ولو ابقوا عليها لما فات من فوائد كان القائمون عليها يقرؤونها او يفهمون . الا ذاك وهي اتقى ما يكون للتاريخ اليوم ونهاية ما فيه الآن كتاب نسخته احدى راهبات الدير سنة ١٨٨٧ م ونسختها نقلاً عن اصل ولم تذكر شيئاً عن الاصل الذي نقلت منه وهو حديث العهد فيه من مقدمه

وفيه شرح للتآليف كثيرة متعلقة بدير صيدنايا ان هذا الدير انما بناه يوستنيانوس الكبير ملك الروم في السنة الخامسة والعشرين من ملكه سنة ٥٥٣ للميلاد وذلك عند مروره في تلك البقعة فاختارها لاقامة هذا الدير بجعل محطة لقاصدي بيت المقدس من اهل القسطنطينية وغيرهم وفي هذا الكتاب امور تتعلق بتجلي السيدة العذراء عليها السلام ليوستنيانوس حتى بنى ديره وهو مثل ما يقوله المسلمون عن بعض معابدهم . وهذه التآليف لا يثق فيها التاريخ ولا تنطبق على العقل ويأخذها المعتقدون بالتسليم دون اعمال الفكر فيها على ان الاحساس الديني تجب مراعاته مهما كان وحقائق العلوم العصرية هي التي تمحو وتثبت .

وفي الجبل اديار غير العامرة الآن في قارة ويبرود ومعلولا قد اصبحت مأوى اليوم مثل دير مار شربين ودير مار توما بالقرب من صيدنايا كما تجد كثيرا من النواويس المقبورة المحفورة في الجبل . ومنها ما رأيناه في منين وعين الصاحب ومعلولا

والجبل الا قليلا منه [illegible] ثمراته ولكنه مختلف بيئات سكانه وعاداتهم فلكل قرية لهجة خاصة بها ولهجة يعرف بها اهلها فاهل معلولا لا يشبهون اهل عين التينة واهل يبرود لا شيء بينهم وبين اهل الرحيبة . والظاهر من سحنات القلمونيين ان منهم اليعاقبة والسريان ومنهم الروم والتركمان ومنهم العرب فاختلفت لهجاتهم باختلاف اصولهم وان كان تركيب بعض اسماء قراهم متشابها مثل يبرود وحيرود ومعرة ومعرونة وعسال وعرسال وحبة وجبعدين وفليطا وتلفيتا . وتلفيتا هذه هي التي قال فيها صاحب المعجم انها كانت بلد قسام الحارثي من بني الحارث بن كعب الذي تغلب على دمشق في ايام الطائع وكان في اول امره ينقل التراب على الدواب ثم اتصل برجل يعرف باحمد الحطار من احداث دمشق وكان من حزبه ثم غلب على دمشق مدة لم يكن للولاة معه امر واستبد بملكها الى ان قدم من مصر بلتكين التركي فطلب قساما ودخل دمشق لثلاث عشرة ليلة بقيت من محرم سنة ٣٧٦ واستتر اياما ثم استأمن الى بلتكين فقيده وحمله الى مصر فعفا عنه واطلقه .

ومن صنائع جبل قلمون وعمارة كثيرة بعض قراه مثل النبك وصيدنايا ويبرود ومعلولا الدبس فانه تعمل فيه بسط قديمة ولكنها متينة يستعملها اهل الجبل ويشترون لها من سكان القرى كما يحيكون الخام الجيد في هذه القرى . ولا عمل على صناعها ولكنها متعبة جدا ورخيصة وقد لا يربح العامل قرشين في نهاره ومع هذا يجد نفسه سعيدا

بهذا المقدار الطفيف .

وهواء الجبل معتدل جداً وهو انفع لاكثر الاجسام من هواء لبنان القليل القرب ذلك من البحر يورث النفوس نشاطاً ومضاء وان الكسل الطبيعي يغلب على سكانه وتساوى في ذلك سكان جروده وسهوله وقراه ومزارعه واسلامه ونصاراه ولو عنيت الحكومة بعد لاصلاح طرقه ومواصلاته والغالب فيما نحيل جداً لكثر اختلاف المصطافين اليه وخصوصاً سكان دمشق لان قلمون منها بمنزلة لبنان من بيروت والطرق فيه عامرة بطبيعتها مثل طريق صيدنايا الى معلولا وطوله خمس ساعات [illegible] معلولا الى يبرود وطوله ثلاث ساعات وطريق يبرود فالنبك فدير عطية فقارة وهذا الطريق على طوله لو صرف عليه بضع مئات من الليرات لسارت عليه المركبات كما تسير على احسن الطرق الجيدة ولكن الحكومة في العهد الاستبدادي كانت لا تحسن من الادارة الا ان تسلب نعمة الفلاحين بطرقها المعروفة من تكثير الضرائب والعشور والرسوم وارهاق الفقير بالاعانات الكثيرة ولعل دولة الدستور تنوي في القرب ان تجعل من مالها ووقتها نصيباً تصرفه في ترقية البلاد فتستعيد بحسن الصنيع الثقة المفقودة من اهلها وقد كانت حكومة الاستبداد ترى ان شقاءها بافقار الاهالي والواجب على حكومة الدستور ان تعتقد ان شقاءها من شقائهم وسعادتها بسعادتهم

وان جبلاً كقلمون وهو جزء صغير من ولاية سورية وجزء اصغر من هذه المملكة العثمانية اذا حسنت ادارته واطلقت حكومته في عمرانه يخرج من الخيرات ما لا يخرج مثله الجبل الاسود ذو الامير والملك وصاحب الملك والوزراء . وكيف يعمر مثل قلمون اذا كان ولاة دمشق يقضون بها السنين الطويلة ولا يزورون معاهده ويتفقدون حالة اهله بل ان الولاة المتقدمين الذين طالما تداولوا الحكم عليه لا يهمهم الا قبض رواتبهم واخذ ما يريدون اخذه من الاهالي واذا طافوا بعض قراه فللنزهة والتماس الفسحة والراحة لا لرفع ظلامة واقامة عدل وتحسين حال ويعتمدون في امورها على مشايخ معظمهم على غير علم كانوا ولم يزالوا عون كل ظالم والسعيد منهم من كان الجهل الغالب على قريته يسوغ له ان يحكم فيهم حكماً قرقوشياً ولا ابالي اذا قلت اليوم ان اهل قلمون لم يصبهم حتى الآن رشاشة من نعمة الدستور في تغيير من الخواطر ولولا بعض قبس لا في عقول بعض اهل القرى التي يكثر فيها المتعلمون والمدارس والهجرة لكان قلمون كما كان منذ مئات من السنين .

وهذا رأينا أن نتم هذا الفصل بقصيدة الامير عبد القادر الحسني الجزائري قالها وقد سأله بعض الفرنسيس أي العيش أطيب عيش الخلاء والبداوة أم عيش المدن والحضارة وقد كنا نردد أكثر أبياتها في رحلتنا ولا سيما ما يصدق عليها على مواضع الحالة التي كنا فيها في الجبل من السعة وزراع الخيل قال رحمه الله :

يا عاذراً لامرئ قد هام في الحضر ... وعاذلاً لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتاً خف محملها ... وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني ... لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
لو كنت أصبحت في الصحرا مرتقياً [1] ... بساط رمل به الحصباء كالدرر
او جلت في روضة قد راق منظرها ... بكل لون جميل طيب عطر
تستنشقن نسيماً طاب منتشقاً ... يزيد في الروح لم يمرر على قذر
او كنت في صبح ليل هاج هاتنه ... علوت في مرقب او جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها ... سرباً من الوحش يرعى اطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبق من حزن ... في قلب مضنى ولا كداً لذي ضجر
نباكر الصيد احياناً فنبغته ... فالصيد منا مدى الاوقات في ذعر
فكم ظلمنا ظليماً مع نعامته ... وان يكن طائراً في الجو كالصقر
يوم الرحيل اذا شدت هوادجنا ... شقائق عمها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى ... مرقعات بأحداق من الحور
تمشي الحداة لها من خلفها زجل ... أشهى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها ... شليلها زينة الاكفال والخصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها ... على البعاد وما تنجو من الضمر
نروح للحي ليلاً بعدما نزلوا ... منزلاً ما بها لطخ من الوضر
ترابها المسك بل أنقى وجاد بها ... صوب الغمائم بالآصال والبكر
نلقى الخيام وقد صفت بها فغدت ... مثل السماء زهت بالانجم الزهر
قال الاولى قد مضوا قولاً يصدقه ... نقل وعقل وما للحق من غير
الحسن يظهر في بيتين رونقه ... بيت من الشعر او بيت من الشعر

---

[1] في رواية (لو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً) الى آخر البيت

اموالنا ان اتت عند العشي تخل[1] اصواتها كدوي الرعد بالسحر
سفائن البر بل انجى لراكبها سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهارى وما للريح سرعتها بها وبالخيل نلنا كل مفتخر
خيلنا دائماً للحرب مسرجة من استغاث بنا بشره بالظفر
نحن الملوك فلا نعدل بنا احداً واي عيش لمن قد بات في خفر
لا نحمل الضيم من جار فنتركه وارضه وجميع العز في السفر
وان اساء علينا الجار عشرته نبين عنه بلا ضر ولا ضرر
تبيت نار القرى تبدو لطارقنا فيها المداواة من جوع ومن خصر
عدونا ماله ملجا ولا وزر وعندنا عاديات السبق والظفر
شرابنا من حليب لا يخالطه ماء وليس حليب النوق كالبقر
اموال اعدائنا في كل آونة نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
ما في البداوة من عيب تذم به الا المروءة والاحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية والعيب والداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى فنحن اطول خلق الله في العمر

* * *

---

(١) في رواية : « اموالنا اذ تروح بالعشي علي » الى آخر البيت